الفصل الثالث

ثمانية عشر قرنًا من المعاناة اليهودية

فى الرؤية الصهيونية للتاريخ، كانت الجماعات اليهودية التى امتدت بعيدًا فيما وراء الشرق الأوسط، فى آسيا وأوروبا وفى أمريكا أخيرًا، طوال القرون التى تلت سقوط المعبد الثانى بالقدس ٧٠م، جماعات لا حول لها ولا قوة، ملاحقة وتخضع لاضطهاد متواصل. وكانت حجة منظرى الصهاينة من أمثال تيودور هرتزل، أن لا شىء سوى نقل اليهود إلى «وطننا التاريخى الذى نذكره دوما» فى فلسطين يمكن أن يُنهى « ثمانية عشر قرنًا من المعاناة» (Vital 1975:266) بيد أن الحقيقة أشد تعقيدًا من هذا بكثير. فالواقع أن هذه الأسطورة الصهيونية إهانة بالغة لحركية اليهود، وحراكهم وإبداعهم الكبير فى مواجهة مهمة شق طريقهم فى خضم تقلبات الأحوال التى ألمت بهم، وفى داخل الأشكال والأحجام المتغيرة للامبراطوريات المسيحية والإسلامية البازغة، والتى سادت طوال هذه الفترة التاريخية الطويلة، وقد استبعد سالو بارون، وهو واحد من أهم المؤرخين اليهود وأغزرهم إنتاجًا فى مطلع القرن العشرين (ويصل كتابه الذى يحمل عنوان تاريخ اليهود الاجتماعى والدينى إلى ١٨ مجلدًا) التناول الصهيونى باعتباره «بكائية حزينة».

هناك حقيقتان غير عاديتين تستحقان التأمل فى البداية. لماذا اختفى الفلاحون اليهود فعلاً بحلول سنة ١٠٠٠م، بحيث انخفضت أعداد «الشعب اليهودى» كثيرًا، وبحيث جعلته من أهل الحضر؟ (Johnson 1993:171) لماذا كان أكثر من نصف يهود العالم فى بداية القرن التاسع عشر يعيشون فى پولندا ـ ليتوانيا؟ (Hundert 1992:11).

هذان السؤالان يستدعيان سؤالاً آخر. فعلى مدى حوالى ٢٠٠٠ سنة، لم يتمكن

اليهود فقط من البقاء؛ ولكنهم نجحوا فى تحقيق فترات متواصلة من الرفاهية، ولكن مع مرور القرون، وبصورة متزايدة، أصبح إقبال اليهود على زراعة الأرض أقل. كان هذا الأمر واضحًا بشكل كبير فى أوروبا المسيحية التى منعت اليهود من امتلاك الأرض أثناء الفترة التى أطلق عليها المؤرخون «الإقطاعية» والتى اعتمد فيها الازدهار، وقبل كل شىء، على الإنتاج الزراعى. وهنا نصل إلى واحدة من أكثر الحقائق الصعبة وغير المفهومة، وذلك لأن هذه الحقبة من الزمن هى التى شهدت تطوير اليهود لشركة عالمية للتجارة لتقوم بمساعدتهم فى خدمة الإمبراطوريتين الدينيتين.. وهذا، سيعمل بدوره على استقرار وتطور المجتمعات اليهودية المبعثرة، وستجعل دينهم المميز لهم لا يمكن فصله عن دورهم الاقتصادى.

ويرى كارل ماركس أن بقاء اليهود منذ العصور الرومانية وحتى القرن التاسع عشر؛ اعتمد فى الحقيقة على دورهم الاقتصادى. وقد أغضب رأى ماركس هذا بعض الباحثين الحديثيين الذين قاموا باستبعاد رؤيته لأنه كان (مرتد)[1]: ومع هذا كان ادوارد جانز، أحد أساتذة ماركس عندما كان طالبًا فى جامعة برلين فى الثلاثينيات من القرن التاسع عشر، هو الذى جادل بأن وحدة اليهود على مر العصور اعتمدت بشكل مؤكد على تحول اليهود إلى طبقة من التجار، أو على الأقل، كانوا تحت قيادة هذه الطبقة (Mendes-Flohr and Reinharz 1995:216).

ولا يمكن أن نتجاهل جانز بهذه السهولة، فقد كان مؤسس واحدة من أكثر جماعات الضغط الثقافية اليهودية المتنورة، التى تحظى باحترام كبير فى ألمانيا فى القرن التاسع عشر. هذه الجماعة هى: ڤيرين، رابطة ثقافة و علم اليهود.

أخيرًا بدأت الدراسات اليهودية الحديثة تتوافق مع هذه الحجة. إذ إن الباحثين فى التاريخ الاقتصادى اليهودى، مثل بارون وكاهان وغيرهما، قد أسهموا فى التبصر المدهش بأنه لم يكن هناك طبقة تجارية يهودية فحسب أواخر العصر القديم، وإنما يحتمل أنها كانت بحد ذاتها حافزًا على اعتناق اليهودية، فى نفس الوقت الذى كان فيه الفلاحون اليهود يذوبون فى الريف «الوثنى الذى لم يلبث أن تحول إلى المسيحية ثم إلى الإسلام» فى وقت لاحق. ويبدو أن أعدادًا كبيرة من الفينيقيين والقرطاجيين قد اعتنقوا

الدين اليهودى «وجلبوا مهاراتهم التجارية» إلى داخل الجماعات اليهودية (Baron et al . 1975:21) والحقيقة، أن أبرام ليون، الذى كان قائداً لمجموعة اشتراكية يهودية صغيرة فى بلچيكا تحت احتلال النازى، والذى مات فى أوشڤيتز، كتب أول دراسة رائدة فى هذا المجال، حتى على الرغم من أنها لم تلق الاعتراف من الباحثين فى العصر الحديث[٢].

ولا يمكن فهم العداوة تجاه اليهود فى عالم العصور الوسطى، ونجاحهم كذلك عبر العصور، دون أن نأخذ فى الحسبان دورهم الاقتصادى. ويكاد يكون التحرش الدينى مختلطًا بهذا على الدوام. وبطبيعة الحال، كانت اليهودية عند كل من المسيحية والإسلام فى درجة أدنى. بيد أن كلا الديانتين كانتا على استعداد دائم للبحث فى كتبهما المقدسة لإيجاد الأسباب التى تدعوهما إلى التسامح مع اليهود وحمايتهم. وعادة ما كانت فائدة اليهود لمجتمعاتهم تتجاوز تجديف اليهود ضد يسوع أو محمد؛ إذ إن دورهم الاقتصادى الدولى، الذى زرع وحصد على مدى أجيال كثيرة، قد أرسى طاقة لا تبارى فى العائلات اليهودية. فلم يحول بعض اليهود إلى قوم يتحدثون عدة لغات فحسب، مع كل المهارات الإضافية التى ينطوى عليها هذا، ومنها المعرفة التفصيلية بالأجزاء البعيدة والنائية فى العالم، وإنما وضعهم غالبًا فى طليعة التقدم العلمى. وفى البلاد الإسلامية فى العصور الوسطى كان اليهود معروفين غالبًا كتجار وأطباء، كذلك لعب بعض اليهود دورا ديپلوماسيًا كبيرًا:

«خدم التجار اليهود باعتبارهم وسطاء مهمين فى عالم انقسم بين الإسلام والمسيحية . . . وبحلول القرن التاسع كانت العبرية قد صارت لغة عالمية مهمة»[*] (Baron et al. 1975:28-9).

(*) أوراق الجنيزا، وهى أكبر دليل وثائقى على أحوال اليهود فى العالم الإسلامى (فيما بين القرن الرابع الهجرى/ العاشر الميلادى والسابع الهجرى/ الثالث عشر الميلادى) تثبت أن اليهود فى غالبيتهم لم يكونوا يعرفون العبرية. والوثائق نفسها مكتوب معظمها باللغة العربية بحروف عبرية، أو بحروف عربية. ومن ناحية أخرى، فإن يهود أوروپا لم يستخدموا العبرية سوى فى المسائل الدينية، وعرف يهود حوض الراين لغة اليديتش التى كانت من اللغات الجرمانية مع خليط من كلمات وعبارات عبرية. وعلى أية حال، فإن أحوال اليهود الأوروپيين آنذاك، فى ظل الهوس والتعصب الكاثوليكي، والذى أذكت الحروب الصليبية نيرانه، لم يكونوا فى وضع يسمح لهم، أو للغتهم، بهذا الدور العالمى المزعوم، بدليل أن يهود أوروپا فى تلك الفترة لم يبرز بينهم اسم واحد فى أى مجال، باستثناء اليهود الذين عاشوا تحت حكم المسلمين فى الأندلس ـ المترجم.

وفى الحقيقة، كان الحكام يحتاجون بشدة إلى الجماعات اليهودية فى بلادهم. وقد حظوا بما هو أكثر من التسامح؛ فقد كانت لهم مكانة معترف بها فى مجتمع العصور الوسطى، ويعنى هذا أنهم تمتعوا بفترات طويلة من الاستمرار ودرجة من الاستقلال القانونى. وبطبيعة الحال، عندما كانت تسوء الأمور ـ الأمراض، الأوبئة، نقص المحاصيل، التعرض لفساد البلاط المستشرى، أو حاجة أحد الحكام لفرض مزيد من الضرائب على الفلاحين لمغامرة خارجية، يمكن أن تؤدى بدورها إلى الاضطراب الشعبى ـ كان يمكن أن يصير اليهود كبش فداء. بيد أن هذه لم تكن حالة دائمة، حتى لو كانت هذه إمكانية موجودة على الدوام.

وأخيراً بدأت الشبكة التجارية اليهودية القديمة فى العصور الوسطى تنهار عندما برزت أوروبا الغربية ببطء باعتبارها مركز القوة الاقتصادية التى سوف ترسى أسس بناء الإمبراطورية العالمية والرأسمالية الصناعية. إذ إن الدول القومية الجديدة فى غرب أوروبا خلقت أسواقًا عظيمة جديدة أنتجت تجارها العاملين فى خدمتها. وفى البداية، كانت تلك فترة من معاداة السامية الكثيفة بينما تم إخراج اليهود من الأمم البازغة ومن أسواقها. وهنا بدأت رحلة اليهود الطويلة إلى أوروبا الشرقية، ولاسيما پولندا ـ ليتوانيا، حيث استطاع اليهود الاستمرار فى دورهم الاقتصادى المهم. ولكن كان هناك آنذاك أيضًا إحياء يهودى ملحوظ، غمس الأقلية اليهودية فى أوروبا الغربية مباشرة فى مقدمة الحداثة، هذه الفترة أسىء فهمها إلا أنها جوهرية لفهم كل من رفض اليهود وتوافقهم النهائى مع العالم الحديث. واللحظة الحرجة هى بداية القرن السابع عشر. إذ إنها اللحظة التى بدأت فيها الخرافة والدين اللذان ميزا العصور الوسطى يخليان مكانهما للعلم. وهى اللحظة التى بدأت فيها المسيحية فى أوروبا الغربية ـ والتى كانت قد انكسرت بالفعل بسبب حركة الإصلاح الدينى ـ تراجعها الطويل المدى. إنها فجر التنوير. إنهاأيضًا اللحظة التى شهدت النهضة الراقية عندما قام اثنان من أعظم فنانيها، الشاعر والكاتب المسرحى شكسپير فى لندن والرسام رامبرانت فى أمستردام، بإسهامهما الخاص فيما يسمى أحيانًا «المسألة اليهودية». ولكى أساعد على فهمنا لتلك اللحظة، فإننى سوف أنهى هذا الفصل باستدعاء شاهدين حيويين، شيلوك الشخصية التى ابتدعها شكسپير للتاجر اليهودى، وشخصية اليهودى الحقيقى الذى صوره رامبرانت، الذى كان على نفس الدرجة من الأهمية، وهو منسا بن إسرائيل.

لقد أوضح شكسبير ورامبرانت التناقضات التى واجهتها الجماعات اليهودية فى عالم يتغير بسرعة ، على حين بدأت الرأسمالية البازغة حديثًا تهز النظام القديم من أساسه . وترى الصهيونية عالمًا جامدًا ، لا يتغير ومعاد لا يجد اليهود فيه لأنفسهم السلام ـ سوى بالتقهقر إلى مكانهم الخاص ، المغلق ، الّذى لا يقدم هو أيضا السلام بطبيعة الحال . ومع هذا فإن الحداثة والتفكير الحديث قد أظهرا أن التاريخ ديناميكى ، حيث إن موافقتنا الاجتماعية والسياسية ، سواء كانت معادية أو غير ذلك ، والظروف التى تخلقها ، تخضع دائمًا للتحدى والتغيير ، وكما قال ماركس وإنجلز فى «المانفستو الشيوعى» سنة ١٨٤٨م ، مع قدر قليل من الاستعارة من شكسبير :

«كل ما هو صلب يذوب فى الهواء ، وكل ما هو مقدس مدنّس ، والإنسان مضطر فى النهاية أن يواجه بحواس متزنة ، ظروف حياته الحقيقية ، وعلاقاته مع البشر .»

فى العصور الوسطى كان اليهودى الاقتصادى يدعم أحيانًا اليهودى الدينى وكان يحط من شأنه أحيانًا أخرى . وقد وعدت الحداثة بالقضاء على التمييز الأول وأتاحت للضمير الفردى المرونة لكى يحدد معنى الثانى ، إذا ما كان له أى معنى . على هذا الأساس ، كان لا بد لليهود وغير اليهود أن يكتشفوا «إنسانية مشتركة» . وحتى إذا ما كان الوعد قد تحقق جزئيًا فقط ، فإن علينا أن نواصل النضال من أجل تحقيقه .

الدور الاقتصادى اليهودى فى العصور الوسطى

لكن دعنا أولاً ننظر بمزيد من التمعن إلى الدور الاقتصادى اليهودى الباكر . إحدى خصائصه ، التى تجاهلتها بصفاقة الكتابات التاريخية الصهيونية والأوروبية الغربية على السواء ، تمثلت فى أن ديناميته كانت مدفوعة غالبًا بالنجاح الباهر الذى حققته الإمبراطوريات العربية الإسلامية من القرن الثامن حتى القرن الثالث عشر . تلك التى حملت الحضارة والعلم والفن والتطور التكنولوچى ، غرب حضارة الهند وحضارة الصين ـ مع التفاعل معهما ـ من انهيار الإمبراطورية الرومانية إلى النهضة فى أوروبا الغربية . والواقع أنه من وجهة نظر يهود العالم الإسلامى ، الذين كانوا يسافرون فى رحلات إلى قلب الأراضى الأوروبية ، كانت معظم أوروبا تبدو مشهداً مؤسفًا للتخلف الصادم .

فقد أرسل خليفةُ قرطبة (العربى المسلم) إبراهيمَ بن يعقوب لتفقد الاحتمالات التجارية والدبلوماسية فى وسط أوروبا فى منتصف القرن العاشر فقال:

«ليست لديهم حمامات، ولكنهم . . . يبنون موقدًا حجريا يصبون عليه الماء حين يسخن . ويمسكون حزمة من الحشائش بأيديهم ويدفعون البخار حول أجسادهم. ثم تتفتح مسامهم، وتتخلص أجسادهم من كل الزيادات».

وكما يلاحظ نورمان ديڤيز فى كتابه «History of Europe» ، فإن هذا الدبلوماسى اليهودى من إسبانيا المسلمة ينظر إلى الداخل الأوروبى بكل الفضول الذى يقوم به أنثروبولوچى ببحث عن قبائل پاپوا (1996:325).

وبعد قرنين من الزمان، يكتب يهودى آخر، هو بنيامين الطليطلى رحلته ليصف ملاحظاته عبر أوروبا والشرق الأوسط . وقد اشتهر ت بأنها أحسن كتاب رحلات من العصور الوسطى، وسرعان ما تمت ترجمتها إلى كل اللغات الأوروبية تقريبًا لكى تصبح المصدر الأول للباحثين فى القرن السادس عشر.

كانت القسطنطينية، أكبر مدينة فى العالم آنذاك، هى التى خلبت عقله بشكل خاص. كان يعيش بها حوالى ٢٥٠٠ يهودى. ووجد حرفيين يعملون فى صناعة الحرير وتجارًا من كل نوع. وكان كثيرمنهم أغنياء، ولكن لم يكن مسموحًا لأحد منهم بأن يمتطى الخيل فيما عدا الرابای (الربى) سليمان المصرى، الذى كان طبيب الامبراطور. وكانت المحاكم اليهودية مستقلة. والأعمال العدائية ضد اليهود ممنوعة. و المعابد تستظل بحماية قانونية، ولكن لم يكن مسموحًا ببناء معابد جديدة. وكان الاحتفال اليهودى بعيد الفصح يخضع لتغيير موعده حتى يأتى دائما بعد عيد الفصح المسيحى. كانت هناك عداوة شعبية ضد بعض اليهود، ولكن ربما كان بنيامين مندهشًا من سببها: «إنهم دباغو جلود ويصبون مياههم القذرة خارج بيوتهم». ومثلما وجد الدباغين فى القسطنطينية وجد حرفيين يهودًا مهرة فى كل مكان ـ صانعى زجاج فى حلب، نساجى حرير فى طيبة، صباغين فى برنديزى (Johnson 1993:169-70).

وشهادة بن خردابه، الذى كان المسئول عن البريد فى الخلافة العباسية فى منتصف القرن التاسع، تعتبر على نطاق واسع أفضل دليل لدينا عن مجموعة التجار اليهود العالميين المعروفين باسم «الرادانية». فقد كانوا يتاجرون فوق مساحات شاسعة من

«أراضى الفرنج» (تقريبا فرنسا اليوم)(*) حتى بحر قزوين (على الشاطئ الشمالى لإيران اليوم). وكانوا يتحدثون العربية، والفارسية، واليونانية، «والإفرنجية»، والإسپانية واللغات السلافية. وكانت هناك مستعمرات يهودية مبعثرة فى المنطقة التجارية لتنظيم تبادل منتجات الغابات والخيول والجلود والسيوف والعبيد من كلا الجنسين من الغرب بمواد الرفاهية القادمة من الشرق، وكميات كبيرة كذلك من النقود العربية الفضية أساسًا. وقد اشتهر اليهود بتجارة الفضة وتشغيلها عبر قارة أوروپا. وقد خولت الملكة چيزيلا المجرية اثنين من عمال السكة اليهود لسك عملات فضية لها. وبعد ذلك بمائة سنة كان اليهود يديرون دار سك النقود فى پولندا الوليدة وينتجون صحونا فضية رقيقة تحمل اسم الحاكم البولندى بحروف عبرية إلى جانب اسم الصناع. (Abramsky et al.1986:15-8).

وقد أثر الازدهار اليهودى والنفوذ السياسى لهم آنذاك على امبراطورية الخزر، التى كانت قد تطورت على امتداد ساحل بحر قزوين. **وإذ وجدت النخبة الخزرية الوثنية نفسها محصورة بين الخلافة الإسلامية والإمبراطورية البيزنطية، اعتنقت الدين اليهودى أواخر القرن التاسع كوسيلة للحفاظ على استقلالها السياسى، ولكى تندمج فى الشبكة التجارية اليهودية.** (Abramsky et al.1986:16)(٣).

الاستقلال الذاتى اليهودى والحقوق فى مجتمع العصور الوسطى

تحدى الباحث الأمريكى فى اللاهوت اليهودى ديڤيد بيال بشكل واع الرأى القائل بأن الجماعات اليهودية كانت بلا حول ولا قوة فى مجتمع العصور الوسطى. وحجته أن المبدأ المعلن فى أواخر العصور القديمة على يد الحاخام البابلى صمويل الذى عاش فى القرن الثالث وكان مقربًا من البلاط الملكى الفارسى، والذى يقضى بأنه فى مقابل الاعتراف بالسلطة السياسية للوثنيين ينبغى أن يحصل اليهود على استقلال ذاتى داخل

(*) استخدم العرب والمسلمون مصطلح الفرنج للدلالة على أوروپا الغربية عموما، كما أنهم أطلقوا على الأراضى البيزنطية وسكانها (ومنهم اليونانيون) اسم «الروم» ـ المترجم.

الجماعة على المستوى القانونى والسياسى، بحيث أرسى سابقة راسخة بعيدة الأثر (1986:54-6). وهو ما يعنى أن اليهود، بدلاً من أن يصيروا «شعبًا منبوذًا على الهامش الخارجى للمجتمع فى كل من العالم المسيحى والعالم المسلم، سكنوا منطقة قريبة من مراكز السلطة. . . » (Biale 1986:59).

ويجادل بيال بأن المكانة القانونية لليهود فى إسپانيا وفرنسا وألمانيا وپولندا، كانت أفضل كثيرًا من الأقنان، وفى كثير من الأحيان كانت مقاربة لمكانة النبلاء والطبقة البورجوازية. ومفهوم «Servi Camerae» الذى يعرف اليهود بأنهم «أقنان الغرفة الملكية» (Biale 1986:66) يحيط به الغموض. فقد كان اليهود يدفعون الضرائب إلى الملك فقط، فى مقابل أن يضفى عليهم بعض الامتيازات المعينة. ومن ناحية أخرى كانوا يعتمدون عليه وعلى نزواته.

وقد اعتبر القانون الألمانى الصادر فى القرن الثالث عشر Sachsenpiegel، اليهود أناسًا أحرارًا. وهذا أسبغ عليهم حقوقا محددة فى مجتمع إقطاعى: حرية العبادة وحرية الحركة بشكل محدد. وكان هذا اعترافًا قانونيًا بالإسهام الذى قدمه اليهود فى مجال التجارة التى كانت حرية الحركة ضرورية لها. وقد ميز هذا بصراحة ووضوح بين اليهود وأولئك الذين كانوا مربوطين بالأرض، وجعل مكانة اليهود أقرب إلى مكانة الفرسان، الذين كان لهم الحق فى أن يعيشوا حيثما يرغبون.

ومع هذا كانت الحماية السياسية لليهود فى العصور الوسطى تفتقر إلى الاتساق، لاسيما فى أوقات الاضطراب الشعبى عندما تكون السلطات نفسها تحت وطأة الهجوم أو عندما تفقد سيطرتها على الشئون السياسية. وقد فشلت فشلاً ذريعًا فى حمايتهم من المذابح التى جرت أثناء الحملة الصليبية الأولى سنة ١٠٩٦م، وعلى الرغم من أن التحذير الذى أطلقه سان برنارد من كلاريڤو لأتباعه، باعتباره الزعيم الروحى للحملة الصليبية الثانية فى أربعينيات القرن الثانى عشر، بعدم تكرار ذلك، وقد تمت الاستجابة له (Chazan unpublished: ch.6,p.11). على أية حال، فإنه بينما كان التهديد بالعنف ضد اليهود احتمالاً واردًا على الدوام، فإن اليهود لم يكونوا ببساطة ضحايا لاحول لهم ولا قوة:

«الصورة السائدة عن اليهودى فى العصور الوسطى هى صورة شهيد يموت بلا مقاومة، وهذه رؤية خاطئة. . . إذ إن اليهود لم يكونوا مجرد أشياء سلبية. . . فقد حملوا السلاح دفاعًا عن أنفسهم فى أزمنة كثيرة وفى أماكن عديدة. . .» (Biale 1986:72).

وفى غرب ووسط أوروبا، كان قانون السلاح Waffenrecht يسمح لليهود بحمل السلاح، بل إنه كان مسموحًا لهم أن يخوضوا المبارزات. هذه الحرية غير العادية والمعروفة على نطاق ضيق، كانت تطرح معضلة محيرة أمام السلطات الدينية اليهودية. هل كان ينبغى لليهود أن يحملوا السلاح يوم السبت؟ يورد بيال عدة أمثلة بطولية عن المقاومة اليهودية المسلحة أثناء الحملات الصليبية. وبالإضافة إلى ذلك، يلاحظ أن اليهود لم يخدموا فقط فى جيوش العصور الوسطى لملوك فرنسا الكارولنجيين، وإنما صاروا فى بعض الحالات خبراء فى صناعة المعدات العسكرية. إذ إن بعض اليهود المطرودين من إسپانيا والبرتغال فى القرن السادس عشر جلبوا معهم إلى تركيا مهارات ساعدت الأتراك على صناعة «المدفعية والبارود وكرات المدافع، وغير ذلك من الأسلحة» (Biale 1986:73-6).

بينما سيكون من الحماقة لى أن أخسر ميزان التاريخ أكثر مما ينبغى، لكى أزعم أن اليهود لم يكونوا عرضة للهجوم فى تلك الفترة، قدم بيال الدليل الذى يتطلب منظوراً أكثر تدقيقًا.

لقد كانت الحروب الصليبية نقطة فارقة، وقد أسماها ليون **«تعبيراً عن إرادة التاجر المسيحى لشق طريق إلى الشرق»** (Leon 1970:137). ومن المؤكد أن الصراع بين أوروبا المسيحية والعالم المسلم والذى وصل ذروته بالهزيمة النهائية للمسلمين فى إسپانيا القرن الخامس عشر، قد ازدادت كثافته فى ذلك الوقت. وهى أيضًا علامة على بداية طرد اليهود من الدول القومية الجنينية فى أوروبا الغربية.

طرد اليهود من غرب أوروبا

فى انجلترا شكلت موجات من حوادث معاداة السامية خلفية عملية الطرد فى سنة ١٢٩٠: مزاعم خطف اليهود للأطفال المسيحيين لقلتهم فى طقوس دينية؛ مذابح

اليهود فى يورك. والتنويعات على موضوع أن اليهود قتلة المسيح، غذت الهيستيريا التى استحوذت على الجماهير ـ وكون أن الخبز الذى يُعد للاحتفال اليهودى بعيد الفصح يحتاج إلى بديل عوضًا عن دم المسيح كان يشكل واحدة من أشد خرافات العصور الوسطى خسة. ومع هذا فإن «الافتراءات ينبغى النظر لها على خلفية من عمليات إقراض اليهود الأموال بالربا» (Johnson 1993:210-11).

كان اليهود جماعة من المرابين والصيارفة. وفى أعلى المستويات كان اليهود صيارفة رسميين للملك. وكانت خزانة اليهود هناك تشكل قسمًا من الخزانة الكبرى للمملكة (Roth 1949-30).

كان الصيارفة الملكيون اليهود، أحد الأسباب العديدة لاستياء البارونات ملاك الأراضى الإقطاعيين من الملك. وقد وصل الصراع بين البارونات والملك فى بداية القرن الثالث عشر إلى أوجه فى وثيقة الميثاق الأعظم «الماجنا كارتا» سنة ١٢١٥م، التى تعتبر إحدى الوثائق العظمى المؤسسة للديمقراطية الإنجليزية.

ووثيقة «الماجنا كارتا»، التى اشتهرت بما قررته من أنه لا يجوز سجن أى رجل حر أو نفيه «سوى بحكم قانونى بعد محاكمة من أقرانه»، كانت فى جوهرها محاولة لفرض نظام وطنى مؤسسى وجنينى على العلاقات بين الملك والبارونات (Holt 1992:188-9).

وقد تضمنت «الماجنا كارتا» عبارتين يهوديتين، تناولتا الإعفاء من الديون. وببساطة شديدة، خفضت العبارتان كمية النقود التى كان يجب على أسرة المدين دفعها، بإلغاء فوائد الدين. وكانت تلك ضربة موجهة إلى كل من اليهود والملك؛ لأنه إذا مات الدائن اليهودى كان الدين يؤول إلى الملك. وفى الوقت نفسه، طبعًا، نصت الفقرتان على التخفيف عن المدينيين المعدمين.

وكما يلاحظ روث:

> « هاتان الجملتان بما يبطنهما إحساس جارف بالظلم، تعطيان فكرة عن العداء الذى كان ينظر به إلى الأتباع اليهود الملكيين فى ذلك الحين»(1949:36-7).

وقد لاحظ سالو بارون مغزى الإطار الوطنى الجديد الذى ظهرت بداخله الشكوى الدينية ـ الاقتصادية ضد اليهود:

«لقد أثر الانشغال بالمشكلة اليهودية بعمق على التفكير الوطنى الإنجليزى. . . ويعتبر إدوارد الأول بحق الملك الذى شهد حكمه ذوبان السلالات الفرنكو ـ نورمانية، والأنجلو ـ سكسونية نهائيا فى أمة إنجليزية جديدة مما خلق قومية متماسكة تمامًا» (1996:245n.40).

وفى الوقت نفسه، فإن «أول صيارفة مسيحيين حقيقيين»، مثل فرسان الهيكل، كانوا يحلون محل اليهود فى أدوارهم المالية الكبرى (Johnson 1993:213).

وقد تم جمع البحث المتميز والتحليل الممتاز للاقتصاد اليهودى الإوروبى فى تلك الفترة على يد جوناثان إسرائيل. وهو يشير إلى عوامل اقتصادية كامنة سبقت موجات طرد اليهود فى جميع أرجاء أوروبا الغربية:

«اليهود. . . تم عصرهم اقتصاديًا إلى أبعد حد بالتطور العام للتجارة والصناعة والصيرفة المسيحية. فقد أراد التجار والحرفيون المسيحيون ألا يكون لهم منافسين من اليهود، عندما صاروا أقوياء بالدرجة الكافية، وكان هدف نقاباتهم أن تستأصل اليهود من الحرف والتجارة» (Israel 1985:27).

ومحاكم التفتيش الإسبانية، عند نهاية القرن الخامس عشر الميلادى، تشكل أكبر رمز دموى وعنيف فى عمليات طرد اليهود. ومرة أخرى نشهد خلط الهويات القومية الجديد، بالضراوة الدينية، والاقتصاديات ـ الإسبانية الجديدة التى سوف تغزو أجزاء من أمريكا بتجارها فى محاولة للسيطرة على طرق التجارة الأطلنطية الجديدة المزدهرة، وتحدد هويتها برفض تراثها الإسلامى واليهودى على السواء.

وثمة نموذج عام من الإرهاب ساق معظم اليهود باتجاه الشرق. وفى البداية كانت القوة الدافعة من المدن الجديدة تحت قيادة صغار القساوسة. ففى إيطاليا حلت مؤسسات مدنية مسيحية جديدة «monti di peita» محل البنوك اليهودية العاملة فى القروض (Israel 1985:7,9). ثم، عندما انفجرت حركة الإصلاح الدينى، قام مارتن لوثر زعيمها الرئيسى ـ والذى كان متعاطفًا مع اليهود فى البداية ـ بالإنقلاب عليهم فى غضب أعمى، عندما أيقن أنهم لا يأبهون بمجادلاته.

ومنذ ذلك الحين فصاعداً أدت الحركية المنطلقة لحركة الإصلاح الدينى إلى إذكاء نار العداء الدينى والاقتصادى ضد اليهود فى شتى أرجاء القارة.

وصار الدور الاقتصادى اليهودى التقليدى عامل استفزاز بشكل مطرد. فبين سنتى سنة ١٦١٤- ١٦١٥م، قام التجار اليهود فى فرنكفورت بتوجيه ضربة لنقابات صناعة النسيج اللوثرية باستيراد أقمشة أرخص من هولندا وانجلترا. وألهبت الخطب اللوثرية الغضب الشعبى، الذى اتخذ من اليهود كبش فداء لتدهور الأحوال الاقتصادية فى المدينة، وأدى إلى أسوأ حوادث شغب فى تاريخ المدينة (Israel 1985:68).

وفى كل مكان تعرضت الأنشطة الاقتصادية اليهودية للبتر، ولم يترك لهم سوى عمليات محدودة لإقراض الأموال بالربا للفقراء (Israel 1985:23).

وقد برهنت حركة الإصلاح الدينى المضادة على ضراوتها بدرجة مماثلة فى العداء لليهود. إذ إن حركة الإصلاح الدينى كانت قد أثارت جدلاً أساسيًا حول معنى كل من العهد القديم والعهد الجديد فى الكتاب المقدس. وفى البداية ـ خاصة فى إيطاليا ـ أسبغت روح عصر النهضة على الجدل سمة الصراحة والوضوح، وسمحت بمشاركة الباحثين اليهود. وحتى البابوات والكرادلة بدأوا يهتمون بالأدب العبرى. ولكن كان أمراً مسلمًا به أن اليهود سوف يخسرون الجدل، وأنهم سوف يتحولون إلى المسيحية عقب ذلك. وتفجر الذعر عندما بدأ أحد الرهبان الفرنسيسكان يتفق مع اليهود، وينكر المسيح ويتبنى الحجج اليهودية (Israel 1985:18). وتم حرقه مقيداً على خازوق فى روما. وانتشرت كلمة استشهاده فى كل الجماعات اليهودية فى أوروبا. وبعد ذلك مباشرة، أى فى سنة ١٥٥٣م، حرَّم البابا التلمود، الذى هو أساس التراث اليهودى بعد الكتاب المقدس وأساس الشريعة اليهودية. وصدر الأمر بإحراق الكتب اليهودية عامة، وفُرض على اليهود التقوقع فى الجيتوهات، وتلا ذلك طردهم. وقد تم حصار «المارانو»، وهم اليهود البرتغاليون الذين أجبروا على اعتناق المسيحية ثم عادوا فيما بعد إلى اليهودية، وعُذبوا وحرقوا أحياءً. (Israel 1985:18-19).

وبنفس الطريقة، بدا أن الأمم البازغة كانت تحدد هوياتها بالتخلص من اليهود، وأن المخاوف اللاهوتية التى كشفتها حركة الإصلاح الدينى كانت عميقة الجذور، جعلت

كلا من الجانبين ـ فى الانقسام الذى حل بالمسيحية (البروتستانت والكاثوليك) ـ يقف متحصنًا بمشاعر العداء لليهود. ومهما كانت درجة التدمير التى حاقت بالجماعات اليهودية فى أوروبا الغربية من جراء ذلك ـ وكان الخروج الضخم باتجاه الشرق هو الرد الوحيد المتاح ـ فإن هذه المرحلة لم تستمر سوى فترة قصيرة للغاية. إذ كان هناك إحياء دينى واقتصادى يهودى يأخذ مجراه، على حين لم تجد أزمة حركة الإصلاح الدينى خاتمة مرضية عندما أخذ معنى الحداثة فى أوروبا الغربية يتخذ شكلا أكثر وضوحًا. ولكن قبل اكتشاف هذا، فإننا بحاجة إلى الملاذ اليهودى الجديد فى پولندا.

يهود پولندا

فى سنة ١٥٠٠م، كان هناك حوالى ثلاثين ألف يهودى يعيشون فى پولندا. وفى سنة ١٥٧٥ كان الرقم قد زاد أربع أو خمس مرات ليصل إلى ما يتراوح بين مائة ألف ومائة وخمسين ألفًا، وهو عدد ربما زاد قليلاً على عدد اليهود الإسپان عشية طردهم. وقد انجذب اليهود إلى شرق البلاد، التى كانت أقل كثيرًا فى تطورها، وحيث يتمتع أعيان ملاك الأراضى بسيطرة مطلقة. وكان المطلوب بصفة خاصة القدرة على إدارة الضياع الزراعية وتحصيل الرسوم وإدارة تجارة المسافات البعيدة. فقد كانت المنطقة فى بداية الاستفادة من شهية أوروبا الغربية المفتوحة على غلال پولندا الرخيصة، والتى تخدمها شبكة الأنهار فى شرق پولندا على نحو جيد. . وبدأ معظم المهاجرين اليهود الجدد يستوطنون فى العديد من المدن الصغيرة والقرى المملوكة لملاك الأراضى الكبار هؤلاء، مما خلق آلافا من الجماعات اليهودية الصغيرة (Israel 1985:27-9) وتسببوا فى ظهور ما صار معروفًا باسم نظام الأرندا Arenda system.

هذا النظام فى أساسه يصف الترتيبات التى بمقتضاها كان النبلاء البولنديون يعهدون بضياعهم الزراعية إلى اليهود لإدارتها. وكان معنى هذا التطور غير العادى أن اليهود كانوا يديرون الضياع الزراعية بالمعنى الحرفى للكلمة، والطواحين، ومعامل التقطير:

«هكذا كان اليهود هم الوكلاء الأساسيين. . . فى حركة مرور شاسعة شملت أوروبا بأسرها. . . لأنهم بينما كانوا يبيعون منتجات الأرض لكى تشحن إلى هولندا وما وراءها، كانوا هم الذى يقومون بتوزيع المنسوجات الغربية، والملح، والنبيذ،

ومواد الرفاهية مثل التوابل والمجوهرت . . . وكان هناك أيضا اشتغال اليهود على نطاق واسع بحرف مثل صناعة الصابون، ودباغة الجلود، وصناعة الزجاج والفراء» (Israel 1985:30).

أدى هذا الدور الاقتصادى المتمايز إلى تطور **يهودى سياسى** فريد، ردد صدى مرحلة باكرة من الحياة السياسية لليهود فى أوروبا. فقد تم السماح بعقد مجلس سنوى، عرف باسم «مجلس الأراضى الأربع»، يكون له حق الإشراف على الشبكة الكاملة للجماعات اليهودية فى جميع أنحاء پولندا، كان يدير أمور التعليم، ويعالج الأمور الدينية، ويجمع الضرائب، ويتناول مسائل التخفيف عن الفقراء، ويدير العلاقات مع مجالس المدن البولندية والكنيسة الكاثوليكية. وفى البداية كان هناك إحساس طاغ بالتحرر اليهودى. فلم يكن هناك فى أى مكان آخر بأوروبا أى شىء يقارن بما وصل إلى أن يكون استقلالاً ذاتيًا داخليًا لليهود وحكما ذاتيًا. والواقع أن هيبة مجلس الأراضى الأربع وصلت إلى درجة أنه كان يتدخل أحيانًا فى شئون الجماعات اليهودية خارج پولندا (Israel 1985:185-8).

وعلى أية حال، كان هناك جانب مشئوم فى هذا التطور. فهناك نموذج مثير فى العلاقات اليهودية مع حكام الأراضى التى استقروا عليها، وهو نموذج كان لا بد من كسره لتحقيق التحرر النهائى لليهود. وهو يرجع بأصوله إلى زمن الإسكندر الأكبر، ويستمر حتى اليوم مع الاستيطان الصهيونى فى فلسطين. فقد باع اليهود مهاراتهم وخدماتهم للحاكم فى مقابل درجة من الاستقلال الذاتى ــ تقليديًا،حماية ديانتهم. وعلى أية حال، فإن الخدمات المقدمة كانت تنطوى أحيانا على وسائل قهرية لاستغلال الفقراء.

وهناك مشابهات مثيرة بين نظام الكليروخوس فى مصر البطلمية (انظر الفصل الثانى) ونظام الأرندا فى پولندا العصور الوسطى. والواقع أن هناك أيضا تشابها مع النظام الصهيونى الذى يحمى المصالح الاقتصادية والسياسية للولايات المتحدة فى الشرق الأوسط فى مقابل دعم استقلال الدولة اليهودية، وهو ما يضرب بجذوره فى الاستعمار الصهيونى للأرض الفلسطينية بدوره. وسوف نعود إلى هذه المناقشة فى الفصول اللاحقة، **ولكن فى الوقت نفسه ينبغى لنا أن نلاحظ أن الحرية اليهودية كانت دائمًا متوافقة مع «دور الوسيط اليهودى» الذى تم تأسيسه.**

ومن المؤكد أن الكتابات التاريخية اليهودية البولندية كانت على صواب عندما وصفت نظام الأرندا بأنه «يشبه السماء بالنسبة لليهود، والجنة بالنسبة للنبلاء، والجحيم بالنسبة للأقنان» (Abramsky et al.1986:3). وعلى حد تعبير أحد كبار الربيين فى بولندا القرن السابع عشر، وهو جويل سيركس: «**كان الخطر عظيمًا من صياح الأغيار (غير اليهود) فى معظم الأماكن، الذين يشكون من أن حكم اليهود عليهم يشبه حكم الملوك والأمراء**» (Levine 1991: 67).

فى سنة ١٦٤٨م انفجرت أوكرانيا، إذ كان أكثر من نصف الضياع المزروعة هناك تدار بالأرندا اليهودية لصالح ملاك الأرض البولنديين الغائبين (ليڤين ١٩٩١ : ٦١) وقد انتفض الفلاحون الأوكرانيون، الذين قادهم شميلنيسكى، وهو من صغار النبلاء، وساندهم القوزاق وتتار شبه جزيرة القرم، وكانت انتفاضتهم ضد الحكم البولندى ونوابه من اليهود. وكان النبلاء البولنديون هم هدف هذه الانتفاضة، ومعهم رجال الكنيسة الكاثوليك واليهود الذين كانت أعدادهم أكثر من هؤلاء وهؤلاء، ولذلك تحملوا أفدح الخسائر. وتم قتل الآلاف من اليهود، وعلى الرغم من أن التقديرات تختلف، فإن هناك اتفاقًا على أن حوالى عشرين بالمائة من اليهود قضوا نحبهم (Abramsky et al. 1986: 5).

وفى كل مكان بدأ نظام الأرندا فى الجمود، وغاص الإقطاع البولندى فى الضمور الذى مهد الطريق لتقسيم بولندا بين كل من روسيا وبروسيا والنمسا فى نهاية القرن الثامن عشر.

وبدأ الفقر المدقع واليأس، اقتصاديًا وروحيًا فى آن واحد، يضرب اليهود الذين يعيشون فى المدن الصغيرة والقرى، وهو ما كانت عليه أحوال الفلاحين البولنديين تقريبًا. وقد احتفظت لنا صفحات عديدة من البولين[٤] Polin بالحالة التى سادت فى تلك الأوقات، وسوف نرى فى الفصل السادس كيف ساعد هذا التاريخ فى تشكيل ظهور سياسات الحداثة فى الحياة اليهودية شرق أوروبا فى القرن التاسع عشر.

وعقب مذابح أوكرانيا مباشرة، بزغت الحركات اليهودية الماشيحانية، مثل حركة شابتاى زڤى[٥]. كذلك كانت للحركة الإحيائية اليهودية الحسيدية أصولها التى ترجع

إلى تلك الفترة (Abramsky et al. 1986: 5). كما بدأت هجرة جديدة، ولو أنها محدودة، تجاه الغرب، خاصة حينما بدا أن الاقتصاد التجارى اليهودى يمرُّ بعملية إحياء.

التحرر اليهودى فى غرب أوروبا

وقد تجلى الاحتقان الذى عانته حركة الإصلاح الدينى فى الحروب الدينية فى الداخل وفيما بين البلاد فى جميع أنحاء القارة. وكان الغضب العارم ضد السامية على كلا الجانبين [البروتستانت والكاثوليك] قد خمد وبدأت تظهر على السطح مبادرات مستقلة لإعادة الاعتبار لليهود. وفى بوهيميا بحلول سنة ١٥٧٧م. وفى براج بصفة خاصة، أعيد الاعتبار لليهود وحافظت الجماعات على نموها. وقد عكس هذا جزءاً من التراث «البوهيمى»، المتشكك فى اليقين الداخلى لكل من البروتستانتية والكاثوليكية (Israel 1985: 40)، ولكنه عكس أيضًا دور براج فى نظام التجارة العالمى المتغير، وأهمية الحرف اليهودية فى صنعة المجوهرات والفضة والذهب. وفى غضون أربعين سنة، صارت براج أكبر مركز يهودى حضرى فى أوروبا المسيحية خارج روما.

كانت المواقف ضد اليهود فى حال من الفوضى العارمة. والبندقية ترمز إلى هذا. فمن ناحية، كان الجيتو فى مدينة البندقية محاطًا بالأسوار العالية، وكانت البوابات تغلق من الغروب إلى الفجر، حتى تتأكد الكنيسة والدولة من أنه لا يوجد اتصال بين اليهود والمسيحيين فى المساء أو فى الليل! واليهودى الذى يضبط خارج الجيتو ليلاً دونما تصريح خاص كان يتم القبض عليه. ومن ناحية أخرى، كان مجلس التجارة البندقى فى سبعينيات القرن السادس عشر يصرُّ على أنه لايمكن الاستغناء عن اليهود فى الاقتصاد الإقليمى، ولم تكن هناك مطلقًا أية مسائل تتعلق بطرد اليهود (Israel 1985: 57). وبنهاية القرن السابع عشر، كان هناك قدر معتبر من اشتغال اليهود فى تجارة المدينة فى الأقمشة، والغلال، وزيت الزيتون ـ على الرغم من التحريم الرسمى لحيازة اليهود للحوانيت والاشتغال بتجارة التجزئة (Israel 1985: 174-5).

وفى أماكن أخرى بإيطاليا، اعترف دوق ساڤوى باليهود سنة ١٦٥٢م «على أنهم

مبتكرون يقدمون حرفًا جديدة». وقد تضمنت هذه الحرف صناعة التبغ، وصناعة الصابون والشمع، بل وحتى تلميع المرجان الأحمر المستخرج من سواحل ناپولى وتونس (Israel 1985: 180).

كان ذلك أيضًا الوقت الذى تمكن فيه ولى العهد البروسى الأمير فردريك أن يتزوج من ابنة كوسمان جومپيرز «اليهودى العامل فى بلاطه» (Israel 1985: 144).

ونقص المساحة يحول بيننا وبين الدراسة المتأنية للظاهرة غير العادية، ظاهرة «يهودى البلاط». ويكتب جوناثان إسرائيل أن عصر يهودى البلاط ١٦٥٠ ـ ١٧١٣م. كان علامة على «ذروة النفوذ اليهود فى أوروپا بداية العصر الحديث» (1985: 123). كانت إحدى مهامهم الرئيسية تتمثل فى عملهم الواسع فى امداد الجيش أثناء حرب الثلاثين سنة. كما كانت مهاراتهم المصرفية أساسية أيضًا بالنسبة للأمراء الألمان المستبدين، على الأقل بالنسبة للفترة التى كانت هناك سيطرة يهودية على أسواق تجارة الذهب والفضة وغيرها من المعادن فى وسط أوروپا (Israel 1985: 132). وبدأت المجهودات لدمج النخبة المالية اليهودية، على الأقل مع الطبقات الوسطى التجارية البازغة فى الاقتصاديات الرأسمالية الباكرة فى غرب أوروپا. وكما هو الحال اليوم، كان لا بد للأصوات الارستقراطية أن تساعد فى العملية. **وحالة سليمان دى ميدينا حالة ذات مغزى، فهوهولندى كان منشغلاً بأسواق الألماس والسبائك الإنجليزية، كما كان موردًا منتظمًا للخبز والعربات للقوات الإنجليزية فى الخارج. وفى سنة ١٧٠٠م، صار ميدينا أول يهودى يُرسم فارسًا فى انجلترا** (Israel 1985: 130).

كان الدور التجارى قد تم إحياؤه؛ لأن العالم الغربى عمومًا كان يجرب فرصًا غير مسبوقة. ولكن الاقتصاد الرأسمالى الجديد كان يُركز باطراد على الصناعة أكثر من التجارة:

«لقد تبنت الدول الأوروپية آنذاك سياسات حمائية بشكل شامل، وركزت على تحسين الأنشطة الصناعية بدلا من تجارة المسافات الطويلة» (Israel 1985: 248).

وقد برهن هذا على كونه أمرًا مصيريًا بالنسبة للجماعات التجارية اليهودية التى انزلقت فى منحنى التدهور طويل المدى. وكان السؤال آنذاك هو، هل يمكن دمج الجماعات اليهودية فى المجتمعات الأوسع؟.

وإذ كانت هذه الجماعات اليهودية ما تزال محل ازدراء كبير من العالم الخارجى، كما كانت حبيسة شبكة من القيود القانونية، زاد اهتمام اليهود الإصلاحيين بها، وببنائها الاقتصادى والدينى. وكان هؤلاء رجالاً من أبناء العائلات الثرية، بدأوا القيام بحملات لصالح جماعاتهم من أجل ما نسميه اليوم حقوق الإنسان أو الحقوق المدنية. وكان الإصلاح سلاحًا ذا حدين. فقد كان يعنى العتق الكامل على المستوى المدنى، والقانونى والسياسى ـ ولم يكن أقلها أن جميع الوظائف والمهن كانت متاحة أمام اليهود. ولكنه كان يعنى أيضًا الإصلاح الداخلى داخل الجماعة. وكان البناء التجارى القديم، الذى يشبه البناء الربانى للتعاليم اليومية التى لا تحصى بخصوص السلوك الشخصى، كان يمثل إحراجًا ومفارقة. ففى الذروة، هناك نخبة ثرية يهودية صغيرة، وفى القاعدة عدد متزايد من الشحاذين، كان:

«يشبه الهرم، كانت الطبقة الوسطى تتألف من المتعاملين فى المعادن من فرانكفورت، وهامبورج، وبراج، وكانت قاعدته مكونة من آلاف الباعة الجائلين اليهود الفقراء الذين كانوا يجوبون مدن وسط أوروبا وقراها، يشترون المعادن والعملات القديمة التى يغذون بها الچيتوات الكبرى» (Israel 1985: 132).

وقد كره موسى مندلسون، الإصلاحى اليهودى البارز فى القرن الثامن عشر هذا:

«لقد أدرك مندلسون أن مجتمع الأغيار قد شكل صورته عن اليهود.. فى معارض التجارة.. واليهود الفقراء يعلقون بضاعتهم للعرض هناك ويقومون بمساومات مرهقة، ويثيرون اشمئزاز المسيحيين بعاداتهم وسلوكياتهم الغريبة.. كان مستعدًا للاعتراف بأن هناك جشعًا موجودًا لا يرتوى بين «العامة الرعاع» على الرغم من أنه يقترح أن المسيحيين ربما كانوا مسؤلين عن هذا» (Meyer 1976: 27).

لقد كان مندلسون نتاجًا لعصر التنوير. وقد توقع مطالب الثورة الفرنسية. وكان من دعاة الاندماج، أى أنه طلب الاحترام لليهودية الإصلاحية فى مجتمعات أوروبا الغربية حيث يجب أن يحظى اليهود بكامل حقوق المواطنة. وكل الحركات الإصلاحية اليهودية، ودعاة الاندماج الذين يقودهم مندلسون، والاشتراكيون والصهاينة الذين جاءوا فيما بعد، وافقوا على أن دور التجار اليهود الكلاسيكيين، الذين وصفهم أحد الكتاب بأنهم «قائمة أسعار تمشى على قدمين» (Kahan 1986: 24). يجب تحويله.

وفى الفصل السادس سوف نرى الشد والجذب بين دعاة الاندماج والاشتراكيين والصهاينة حول كيفية تحقيق هذا. بيد أن الجميع وافقوا على أهمية «تعليم شايلوك».

اليهودى الذى كتب عنه شكسبير

كان ديريك بنسلار، الكاتب اليهودى الحديث، هو الذى وضع المسألة على هذا النحو، ولا شك أنها كانت سخرية مبهجة. ولكن إذا ما كان هناك تراث مثير للمتاعب من أحد أعظم الكتاب فى الفن العالمى والأدب العالمى فيما يتعلق بفهمنا «للمسألة اليهودية»، فلا شك أن هذا هو شايلوك الذى صوره شكسبير.

شايلوك هو الرمز التاريخى والثقافى لمعاداة السامية، وهو يغوص فى أعماق الوعى الشعبى رمزًا لليهودى باعتباره المحتال الذى يسرق أموال الآخرين. وكما يذكرنا إسحاق دويتشر، فإن النازيين تمسكوا بهذا «وكبروه حتى وصل إلى الأبعاد الضخمة التى لا تصدق، ورفعوه دومًا أمام عيون الجماهير.. وكان كثير منهم يبتهجون برؤية شايلوك منقادًا إلى غرفة الغاز» (Deutscher 1968: 150-1). ومع هذا فإن التأثير الهائل لمسرحية شكسبير هو أعمق كثيرًا من النمط الباقى للمرابى الذى يطلب «رطل اللحم» من جسد أنطونيو، تاجر البندقية، الذى فشل فى أن يرد له دينه. فى لحظة حرجة، جعل شكسبير شايلوك يقدم دفاعًا حارًا عن يهوديته، تحديًا للإهانات المسيحية، تحول إلى دعوة للإنسانية المشتركة:

«لقد أهاننى أنطونيو.. وضحك على خسائرى، وسخر من أرباحى، واحتقر أمتى، وأحبط صفقاتى، وثبط أصدقائى، وحرض أعدائى ـ وما هو سببه؟ إننى يهودى. ألا يمتلك اليهودى عينين؟ أليس لليهودى يدان، أعضاء، أبعاد، حواس، مشاعر عواطف؟.. ألسنا نتأثر حرًا وبردًا بنفس الصيف ونفس الشتاء مثل المسيحيين؟ إذا ما كنتم تنخسوننا ألا تدمى أجسادنا؟.... (The Merchant of Venice, 3-i, The Arden Shakespeare 1955: 73).

والمقدمة التى تحملها طبعة آردن للمسرحية، وهى طبعة يوصى بها للمدارس بشدة، تهتم بأن الخطبة تعطى أحيانا انطباعًا على جمهور المسرح لدرجة أنهم ينسون أنها كلام صادر عن الشخصية الشريرة فى المسرحية (1955: 11). وبطبيعة الحال، فإن المسرحية

منحازة إلى جانب أنطونيو بشكل سافر، ومن الواضح أنه الشخصية الشريفة والتى وقع فى حقه الخطأ. ومع هذا، فإن شكسبير قد بذر بذرة الشك فى خسة شايلوك. ويا لها من مجرد خطوة كبيرة بعيدًا عن المسرحية، لكى نرى أنطونيو باعتباره ممثلاً للمسيحية التى غرست ألف سكين فى اللحم اليهودى؟ ولا عجب أن اليهودى يقاتل ردًا على الهجوم.

إن قوة المسرحية هى قوة التناقض. والتناقض فى كل مكان. إننا قد نزدرى المرابى ونحتفى بالتاجر، ولكن اليهود كانوا تجارًا أيضًا فى البندقية قبل أن تفرض المدينة قيودًا عليهم، وتجعلهم يمارسون الربا. ثم غيرت المدينة فكرها كما رأينا. وكل مدينة فى أوروبا وضعت يهودها على نفس حال التأرجح والتلوى.

ويقبض دويتشر على هذا التناقض بشكل جميل... إذ إن انجلترا عند شكسبير سرعان ما ستعيد الاعتراف بالتاجر اليهودى: «سوف يلقى المسيحى البورجوازى نظرة أخرى على شايلوك ويرحب به أخًا له» (Deutscher 1968: 39).

اليهودى الذى رسمه رمبرانت

تسارع تحويل الحياة اليهودية فى أوروبا بفضل «العصر الذهبى» للجمهورية الهولندية فى القرن السابع عشر. فقد كان هذا الركن فى شمال غرب أوروبا قد بزغ من غمار الحروب الدينية فى القارة باعتبارها أكثر اقتصاد متقدم فى العالم وكذلك باعتباره أكثر المجتمعات المدنية تسامحًا.

وقد أسهم اليهود إسهامًا كبيرًا فى التجارة الاستعمارية المزدهرة وفى عمليات التصنيع: الألماس، والتبغ، والشيكولاته، وتكرير السكر. (Israel 1985: 179). ونرى أيضا بروز ظاهرة حديثة للغاية، «البروليتارى» اليهودى، أو العامل فى مصانع التبغ الهولندية ومعامل تصنيع الألماس. وبدأ شىء غريب آخر يحدث. ففى بعض الأحياء على الأقل صار اليهود محبوبين.

وفى قاعة العرض الوطنية بلندن، فى مواجهة ميدان الطرف الأغر، وكما سنرى، على مسيرة عشرين دقيقة من تمثال أوليفر كرومويل فى ميدان البرلمان، ثمة لوحة مرسومة من العهد القديم رسمها الفنان الهولندى رمبرانت عنوانها عيد بيلشاصر:

يصور القماش المرسوم الأثرى مشهداً مخموراً من العهد القديم من سفر دانيال. وثمة يد خفية تكتب رسالة مشفرة بحروف عبرية. بيلشاصر آخر ملوك بابل، وضيوفه الفاسقين يغشاهم الرعب. وقد تم استدعاء دانيال لحل هذا اللغز. ويخبر دانيال بيلشاصر، ابن نبوخذ نصر، الذى كان قد نهب معبد القدس، أنها يدى الرب الذى هاله اضطهاد اليهود، والذى سوف يقسم مملكة بيلشاصر فيما بين الميديين والفرس» (Zell 2002: 59-60).

ومؤرخو الفن مقتنعون الآن، أن منسًّا بن إسرائيل، الربى البارز فى جمهورية هولندا، ساعد رمبرانت فى بناء الرسالة بالحروف العبرية. والتعاون الوثيق بين الرجلين معروف تمامًا، وكان شكلاً نمطيًا لحركة أوسع من الحوار والمصالحة بين المسيحيين واليهود، وهى ما نسميه الآن «محبة السامية ـ Philosemitism».

ومحبة السامية ليست عكس معاداة السامية. ولكن من المؤكد أنها تنطوى على الموافقة على اليهود، على الرغم من أنها تلوح بالأمل فى أن يعتنق اليهود المسيحية. كما أنها عكست الدمار المستمر الذى ألحقته حركة الإصلاح الدينى بالمسيحية. وعلى حد تعبير إسرائيل: «الأولئك الذين تملؤهم الشكوك حول المزاعم واللاهوت الرسمى لمعظم الكنائس، كان اليهود، بمثابة حبل إنقاذ ثمين، وبمثابة خيط يقود إلى جوهر الوحى المقدس..» (Israel 1985: 228). ومحبة السامية، كما يوضح، قد مثلت مرحلة انتقالية تسبق عصر التنوير» (Israel 1985: 228).

وقد عاش رمبرانت معظم سنين حياته فى قلب الحى اليهودى بأمستردام، خلف معبد الربى منسًّا بن إسرائيل مباشرة. ومن بين مائتى صورة رسمها لذكور، عرف حوالى خمسها بأنها ليهود، وهى نسبة مئوية عالية لافتة للنظر لأن اليهود كانوا يشكلون ما يزيد قليلاً على واحد بالمائة من سكان المدنية. وحتى فى تصاويره للمسيح، كان حريصًا على أن يؤكد ملامح يسوع اليهودية. يستحوذ فن رمبرانت على «التضامن فى الرسم» من «داخل» عقل وجسد موضوعه. (Molyneux 2001: 73-5). ويبدو رمبرانت، حتى وإن كان مختفيًا بعمق خلف حجب الغموض الدينى، وكأنه وضع فنه لخدمة كسر الحواجز بين المسيحى واليهودى.

كان الراباى (الربى) منسًّا بن إسرائيل هو الذى قاد المفاوضات مع كرومويل للسعى

إلى إعادة اليهود إلى انجلترا. وتم التأكيد على الأرباح المالية التى ستعود على الاقتصاد وكذلك على المضامين الدينية الصوفية. كانت الحرب الأهلية الإنجليزية قد خلقت بيئة خصبة للحماسة الألفية. وكانت كثير من المجموعات البروتستانتية، بما فى ذلك البيوريتانز، مهتمة بشكل واضح بالدور الخاص الذى سوف يلعبه اليهود فى تحقيق التوقعات المسيحانية (Zell 2002: 92).

بعد ذلك بقرنين من الزمان، سوف يخرج من انجلترا تحت حكم الملكة ڤيكتوريا رئيس وزراء مشهور سيكون هو التجسيد الحقيقى، على الرغم من أنه مرتبط بالأرض بصرامة ومن هذه الأرض، لكل تلك الجهود الباكرة للمصالحة بين المسيحية واليهودية. وعلى الرغم من أن بنيامين دزرائيلى كان قد تم تعميده مسيحيًا پروتستانتيًا، فإنه بقى مأخوذًا بميراثه اليهودى. وإذ وصف المسيحية بأنها «اليهودية بعد أن اكتملت»؛ فإنه كان يسره أن يصف نفسه بأنه «صفحة مفقودة بين العهد القديم والعهد الجديد» (Johnson 1993: 324).

كذلك كانت الجمهورية الهولندية علامة على طريق يهودى مختلف تمامًا نحو العالم الحديث. فثمة تاجر يهودى من أمستردام أدار ظهره لكل من الدين وحياة التجارة. كان اسمه باروخ سپينوزا، وكتب فلسفة عكست أصداء تراجع كل من اليهودية والمسيحية عند فجر العالم الجديد. كان سپينوزا واحدًا من أعظم مفكرى عصر التنوير. وربما يمكن القول إنه فصل الدين عن الدولة والسياسة والاقتصاد، قد بدأ معه. كذلك كان هو أول من سيسميهم دويتشر «اليهود غير اليهود»، وهم المنشقون أو الهراطقة اليهود:

«تعالوا فوق اليهود ولكنهم ينتمون إلى تراث يهودى، وكانوا استثناء من حيث إنهم بوصفهم يهودا كانوا على مناطق الحدود بين عدة حضارات.. ونضجت عقولهم حيث كانت أكثر التأثيرات الثقافية تنوعًا تتقاطع مع بعضها البعض ويخصب كل منها الآخر.. كان هذا هو ما ساعدهم على أن يصعدوا فوق أزمانهم.. ويتطلعون عقليًا فى آفاق جديدة متسعة وبعيدًا فى المستقبل» (Deutscher 1968: 26-7).

كان كارل ماركس، وهو يهودى آخر غير يهودى، واحدًا من أعظم الزعماء فى النضال من أجل الديمقراطية فى أوروپا القرن التاسع عشر (Nimtz 2000: 7). حفزته الشعارات التى أطلقتها الثورة الفرنسية سنة ١٧٨٩م. وعندما انضم إليه جبرائيل

ريسر، قائد حركة تحرير اليهود فى ألمانيا، رمى ماركس بثقله وراء مطالب ريسر:

«يؤكد السيد ريسر بشكل صحيح على معنى رغبة اليهود فى إنسانيتهم الحرة عندما طالب، بين أمور أخرى، بحرية الحركة والإقامة والسفر وكسب العيش إلخ. هذه التجليات «للإنسانية الحرة» تم الاعتراف بها صراحة كما هى فى الإعلان الفرنسى لحقوق الإنسان. .» (Droper 1977: 127).

وقد ضمن ظهور الديمقراطية فى أوروبا الغربية وأمريكا الشمالية هذه الحقوق لليهود فى العصور الحديثة.

لقد برهن «الغرب»، وأمريكا خصوصًا، الذى يضم أكبر جمهرة من السكان اليهود فى العالم، على كونه مغناطيسًا يجتذب ملايين اليهود الذين هاجروا، عند نهاية القرن التاسع عشر، هربًا فى الغالب من ظروف الفقر المدقع فى أوروبا الشرقية. وقد برهن هؤلاء اليهود على أنهم أنجح الأقليات العرقية فى ظروف توافر أى معايير لتكافؤ الفرص والحراك الاجتماعى.

وربما يصف معظم اليهود أنفسهم اليوم بعقلانية أنهم ينتمون إلى الطبقات الوسطى المهنية ويفخرون عن حق بإسهاماتهم الكثيرة البارزة فى الفن، والعلوم، والتعليم والطب، والصحافة، والسياسة والتجارة. وقصة النجاح هذه قد برهنت على أنها ممكنة ليس فقط بسبب المرونة المطلوبة لحماية استقلالهم الدينى، ولكن أيضًا بسبب «الشخصية التجارية والحرفية لليهودية، ميراث ماض تاريخى طويل». (Leon 1970: 236). تطور فى السياق الحضرى لحضارات الشرق الأوسط وأوروبا. نعم كانت هناك معاناة، بيد أن هذا يحكى لنا فقط جزءًا من الأداء العبقرى فى المجالات الاقتصادية والفكرية غير العادى، الذى تطور على مدى قرون عديدة. وآمل فى أن يكون هذا الفصل قد قدم القليل لضبط الميزان.

وأخيرًا ربما يثور اعتراض لا يمكن إنكاره، أنه حيثما انكسرت الديمقراطية، مثلما حدث فى ألمانيا النازية، عادت معاداة اليهود مصحوبة بانتقام رهيب يفوق التصور وسوف نتأمل الفترة النازية فيما بعد، ولكننا سوف نتحول أيضًا لنرى كيف أن المشاعر المعادية لليهود، تزداد تأججًا حينما ينكر اليهود الديمقراطية على الآخرين فى الأرض التى يزعمون أنها ملك لهم وحدهم.